((غات محطة رئيسية لطرق القوافل))

غات تقع مابين فزان والصحراء الجزائرية 22 عرض و10طول ارتفاع 780م على مسافة 3كم عن وادي تنزوفت ، على طريق قديم للتجارة الصحراوية القادم من كانو زندر أغادس والذي يؤدى الى تونس عبر غدامس والى طرابلس، إما عبر غدامس أو فزان والمنطقة مأهوله منذ العصور القديمة الامر الذي تثبته النقوش الصحراوية والمقابر مثل تلك الموجودة قرب البركت وتن الكوم ولكن لم يثبت على الاطلاق ان رابسا oppidum المذكورة عند بلينيوس كانت تقع هناك ، وغات ذاتها المذكورة عند ابن بطوطة لايزيد عمرها عن 700 عام وازدهارها له علاقة بالتجارة عبر الصحراء . وتعتبر غات في أعين طوارق الازقر باريسهم ويدعوها العديد من التجار" مارسيليا الصحراء وان التجارة العابرة للصحراء اخذت تتراجع رويدا رويداً منذ مطلع القرن العشرين .
ظلت غات تحت سلطة محلية حتى 1875 عندما ضمت الى ولاية طرابلس الغرب ووضعت فيها قائمقام وحامية عثمانية استمر حتى 1914 اذأنها احتلت لوقت قصير من الايطاليين واعيد احتلالها في 1930حتى يناير 1943حيث تولتها القوات الفرنسية ودخلها من جنوب الجزائر وكذلك قوات الجنرال لكرك الذي سيطر على فزان لقد غادرت القوات الفرنسية غات بعد الاتفاق الليبي الفرنسي 10 اغسطس 1955 واصبحت ضمن اقليم فزان . حجم المدينة 700م ، 500 م لها سور يضم اربعة ابواب وتنضم اليها بساتين تدرمت وتونين وتتبعها الفيوت والبركت على مسافة 9كم جنوبا . ان قبائل غات تنقسم الى خمسة منها كيل تلق ، كيل مكمظن يضاف اليها الاسر التى وفدت من توات وصاهرت وشكلت الطبقة الحاكمة وبنت تونين لسكناها ويضاف اليها اسر غدامسية ، والطوارق الذين اصبحوا حضراً وخاصة في الفيوت والبركت وكثير من السود من بلاد السودان ويدعون هنا العتارة
ان المياه في غات وفيرة يتم سحبها بواسطة الدواب تؤمن ري حوالى 21000 شجرة نخيل وبعض اشجار الفاكهه والحبوب الشتوية والصيفية ذرة قصب ويربي البدو المهاري والماعز وقليل من الغنم ويعمل الحرفيون في الجلد والخشب برزت غات على مدى قرون طويلة كمحطة رئيسية على طريق القوافل نحو أغادس وزندر كانو وتمبكتو واستمرت تؤدي هذه الوظيفة حتى مطلع القرن العشرين عندما تراجعت التجارة العابرة للصحراء واخذت تنقلب تدريجياً الى سوق متواضع للتبادل بين البدو والحضر ويستوردون بعض السلع المصنوعة في فزان . وبعد العثور على البترول شهدت غات تبدلات

سريعة وفي اواخر القرن القرن العشرين اخذت تستعيد مكانتها في مجال اخر وهو السياحة الصحراوية نظرا لقربها من الاكاكوس والكثبان الرملية الجميلة ويشهد عدد السياح تزايدا ملموساً ويساعد وجود المطار على دعم هذه الحركة .

اسم غات : ـ يرى ريشاردسون اعتماداً على دراسة كوللى بان اسم غات قد يكون مأخوذاً من اللغة المصرية القديمة، وتدل على الشمس أو الإله. إلا إن هذا التفسير لم يجد أصداء عند الرحالين اللاحقين أو الدراسات التي تتناول غات، ولامناص في اطار السعي لتقديم تفسير الاسم غات من إيراد روايات أهالي غات حول اسم بلدهم ولهم في ذلك ثلاث روايات. أولها: بان قافلة كانت تسير في الصحراء فعطشت، وعندما وصلت الموضع الذي تقوم فيه غات استغاث أفراد القافلة بالله استسقاء وكان مع القافلة كلب وقف على ندى ماء في المكان الذي توجد فيه عين غات الحالية ، فحفروا في ذلك المنطقة فنبع الماء وبذلك ظهرت العين التي قامت عليها المدينة. وتقول الرواية الثانية إن غراباً كان ينزل في مكان به بعض الماء ودعى الموضع غاغا ومنه اخذ اسم غات، أي من نعيق الغراب . أما الرواية الثالثة فتقول أن اسم المدينة مأخوذ من اسم ولى صالح ويدعي غوث وهو الذي بناها وتؤكد رسائل قديمة كتابة اسم مدينة غات على هذا النحو وان هذه التسميات تدل وجود ماء أو عين وهي السبب في نشأة المدينة وتسميتها .

إن أول ظهور لاسم غات في الكتابات العربية يعود إلى القرن الرابع عشر ويرد في كتاب رحلة ابن بطوطة التى اخترق فيها الصحراء من الجنوب نحو الشمال وقد جاء في مؤلفة النفيس حرفيا "وصلنا إلى الطريق الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات" الا أن هذا الموضع الذي لم يحدد اسمه ابن بطوطة يمكن أن يتحدد لدينا مع شيء من التدقيق وحدده كراوزه بالموضع الذي يقع فيه بئر يدعى ازيو ولا يحدد ابن بطوطة ما هي غات، ويمكن الافتراض انه لم يكن اسم مدينة بل اسم منطقة حيث تقوم حالياً مدينة غات. وحسب روايات الرحالة الإنجليزية هوف أودني الذي زار غات مطلع العشرينات من القرن التاسع عشر كانت مدينة تقع في السابق على هضبة صغيرة. أما الآن فهي تقع عند أقدام الهضبة وفي أثر انهيار جزء في الهضبة فقد دمرت المدينة و قضي على جزء من أهاليها"

نشأة غات : ـ

وإن الطبيعة الهضبة السائدة حول غات و على الأرجح عنصر

الأمان أسهمت في نشأة غات على سطح هضبة تدعي جبل كوكمن ، أما البقعة التي نشأت عليها المدينة فهي تمتد من شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي مدينة غات في الجنوب الغربي من ليبيا وتبعد عن مدينة طرابلس بمسافة حوالي 1360كم وعن سبها 600 كم وعن مرزق 585كم وعن غدامس 582 كم وعن جانت في الجزائر 80كم . يسكن طوارق الشمال مناطق جبلية عالية حيث ينقسمون إلى مجموعتين من اتحاد قبلي يضم الاهقار في الغرب والازقر في الشرق. ويقوم عند أقدام المنطقة الجبلية سهل أو حوض مغلق من الشرق على مقربة من سلسلة جبال اكاكوس يسير وادي تنزوفت وفيها بعض مراكز العمران مثل واحة غات وتونين وفيوت ثم سردليس أو العوينات التي تقع على حافة صحراء تاتيا قرب حافة مرتفعات تادرات ويتخذ وادي تنزوفت في الغرب على مقربة سفح تاسيلي اسما أخر هووريرت إلا انه لايسير باتجاة جنوبي وكلا الواديين يحتويان جزئيا على ارض خصبة صالحة للزراعة، وبفضل ينابيع المياه التي تفجرت من أماكن مختلفة وقريبة من بعضها البعض بوادي تنزوفت تكونت واحات غات والبركت والفيوت . وقد بنى جزء من مدينة غات على ارض تتكون ترسبات مائية من وادي تنزوفت والجزء الأخر بنى على صخرة يقع على منحدر صخرى جنوب تلال كوكمن وتغمر مياه الوادي الأرض المنبسطة القريبة من المدينة

تمتاز غات بموقع جيد، تتوفر فيه الحماية الطبيعية عند النهاية الجنوبية لمنخفض وادي تنزوفت ويمتد هذا المنخفض الكبير، الغني بمصادر المياه الجوفية من الشمال إلى الجنوب محصوراً بين جبال اكاكوس وبين جبال تاسيلى، في القديم لم تكن غات في مكانها الحالي إذ أن أطلال المدينة القديمة تقع إلى الجنوب بلدة غات اليوم ليست مبنية على أنقاض مركز التجارة الصحراوية في العهد الروماني حسب رأي علماء الآثار والسبب في اختيار الموقع الجديد قد تكون الصراعات القبلية بين الطوارق حيث اتخذت غات الملامح الأساسية للمدينة الإسلامية وتعود نشأتها إلى أواخر القرن السابع عشر.

وتعتبر غات مدينة صغيرة كما إن بستاينها محدودة المساحة وتبدو الواحة بكاملها كدائرة لا تتجاوز محيطها أربعة أميال أما أشجار النخيل فتبدو مختلفة جدا إذ لا يعطى نصفها ثماراً كما أن ما يجنى من الباقي متوسط الجودة وهو ما يثبت بالدليل القاطع أن أشجار النخيل لا يعتمد على نوعية المياه لان الأمر في هذه الحالة سيجعل من نخيل غات وثمارها أجود من أي مكان أخر، لان

بعض واحات فزان لا يستساغ للمياه فيها طعما بل وقد لا يختلف مطلقا عن المياه المالحة ومع ذلك تبدو أشجار نخيلها وهى في ابهى صورها ولا يضاهى تمرها أي بلح أخر.
وتقوم على مقربة من غات واحات (تونين) و (تدرمت) كما توجد في الجهة الشرقية منها واحة فيوت وفي الجهة الغربية واحة البركت وفي جنوبها منخفض يطلق عليه اسم كرامة وتوجد بعد بئر رمسين ثم بعد ذلك في وادي فسيح غني بالمراعي وشجر الأثل وإلى الجنوب بعد أطلال القلعة التي من المحتمل أن يكون قد شيدها تن الكوم، كما يوجد في هذه الوديان الصغيرة كلها تقريباً قليل من المراعي، على أن هذه المنطقة هي منطقة مرور ليس إلا، وليست مكاناً للبدو، لان مراعي ((تيسيلى)) أفضل منها بكثير لان المياه في تسيلى غزيرة نسبياً .

وأما ((أكاكوس)) فهوجدار صلب ووعر من أصعب الأمور عبوره والمرور فيه وكانت تقوم في هذه الأراضي أيام الرومان دي رابسا، وهي محطة حربية ، أقيمت لمراقبة الوديان المؤدية إلى الصحراء .

ويبدو أن أصل غات لا يرجع إلى ((رابسا)) هذه. إذ لابد أن تكون غات قد أنشئت بعد ذلك بزمن طويل على اثر الصلح الذي قام بين قبيلتي أزقر. وضواحي مدينة غات جرداء ورملية ومجدبة، على انه تقوم فيها مناطق مائية تزدهر فيها المزروعات
وصف غات عند الرحالين العرب والاوربيين : ـ خطيت غات باهتمام رحالين عرب واوربيين بحكم وظيفتها كمحطة رئيسية على طريق القوافل الرابط ما بين البحر المتوسط وبلاد السودان وكمدينة سوق وبحكم تركيبها السكانية ووجود الطوارق ونورد فيما يلي جملة من النصوص الواردة في مؤلفات هؤلاء الرحالين طالما انها تتعلق بوصف المدينة والتجارة والقوافل وما يرتبط بهذه الموضوعات . وفي كثير من الاحيان نورد نصوص هؤلاء الرحالة دون تدخل وتقدم في البداية نبذة مختصرة عن كل من الرحالين الذين وقع الاختيار عليهم .
يورد ذكر كراوزه في دراسته عن غات قائمة بالرحالة الاوربين الذين زاروا غات ويرتبهم حسب التسلسل الزمني لزياراتهم وبعد ان يذكر الايطالين كارلوماريا ودي ساليزيا في مطلع القرن التامن عشر يورد مجموعة الذين زاروها في القرن التاسع عشر وهم الالماني هورنمان 1800والانجليزيان كلابرتون وأودني 1822 والانجليزي ريشاردسون 1845 وثانية ريشاردسون

والالمانيان بارت واوفرفيغ 1850واسماعيل بودربه 1858 والفرنسي دوفيريه 1861 والالماني فون بارى 1876 ـ 1877 والنمساوي كسيلاغ ثم الحشائشي وعبدالقادر جامي . ويجب ان يشار الى ان المنطقة كانت تحطى ببعض الكتب التى تقدم معلومات عنها مثل " قانون بلاد غات " كما انه يشار الى ان زاوية أو باري كانت تمتلك جملة من الكتب التاريخية ويذكر من االثقات بتاريخ المنطقة وفزان عموماً في القرن التاسع عشر الصالحين في أم الحمام والحاج أو في وادي تكثر فيه وحسن حبد الله الزواوي ولا يكتمل الحديث دون ذكر الحاج عثمان بن عمر الغاتي الذي اعتمد عليه كراوزه في دراسته عن غات وبشير الغاتي الذي كان يدرس الهوسه في جامعة برلين ما بين 1898 ـ 1903 .

صور الرحالة ريشاردسون بارت وأوفرفيع وفوغل وخط رحلتهم الكبرى في العام 1830ـ 1855

الرحالة ادوني: ـ

قام الرحالة الانجليزي أدوني في اطار بعثة برنو التى ضمت بالاضافة إليه كلابرتون ودنهام ، بزيارة غات في يوليو 1822 قادماً اليها من مرزق . وهو الذي قام بوضع تقرير حول زيارته وصف فيها المدينة والمناطق المجاورة لها والتركيبة السكانية والاحوال الاجتماعية . ورغم عمومية معلوماته الا انها لفيت اصداء لدى الرحالين اللاحقين وخاصة ان معلومات الاوربيين حول غات ومناطق جنوب غرب ليبيا عموماً كانت ضحله .

وسنحاول ان ننشر هنا معظم ماذكره أودني عن هذه الزياره .

"قمنا بعد الظهر بزيارة السلطان حيث فرشت الحصائر في القلعة في سقيفة صغيرة ، لقد كان الرجل الشيخ جالسا ثم نهض لتحيتنا والترحيب بنا في المدينه، لقد اعتذر عن عدم انتظاره لنا حيث قال انه مريض ولم يخرج من البيت منذ مدة فقد كان يعاني من دودة غانا والماء الابيض في عينيه كان يرتدي ثوبا عتيقاً بالياً وسروالا بنفس اللون وكان يلف راسه بعمامة من قماش قديم لونه اصفر ، وبالرغم من ثيابه البالية فان شخصيته توحي بالطيبة حتى شعرنا بانفسنا ونحن في خيمته باننا في بيوتنا . اعطيناه هدية وكانت عبارة عن سيف وقد سر به كثيراً وتمنى حتيت لو كانت الهدية برنوس ، لقد كانت المقابلة ممتعة كثيراً وقد سر الجميع بنا وقد غمرنا السلطان العجوز بكرمه ، وشعرنا بنواياه الحسنة نحونا بعد هذه الزيارة دعينا الى بيت الامين ابن القاضي ، وكان شاباً ذا شخصية رائعة ومحترما من الجميع . والده الان موجود بغدامس لتسوية بعض

امور منطقته صحبة بعض الاعيان من سكان المنطقة ، وقد اوصى ولده باستقبالنا والاهتمام بنا لقد كان بيته مرتبا ترتيباً جيدا فقد فرش السجاد على آرائك مرتفعة حيث جلسنا ، ورافقنا في هذه الزيارة بعض الناس الذين كانوا قي القلعة حيث تمكنا من المحادثة وتبادل الحوار بفضل بعض من كان يفهم اللغة العربية . وعندما استفسرنا حول الحروف التارقية وجدناها تنطق تماما كما سمعناها تنطق من قبل اخرين . كنا هنا عند منبع العين ولكن خاب املنا عندما لم نجد كتاب حول اللغة الطارقية ، واخبرونا بانه لايوجد أي كتاب حولها . بعض الطوارق فقط يتكلم العربية وقد استغربنا هذا الامر حيث ان بعض الطوارق يتعاملون مع اناس يتكلمون العربية فقط .

تعتبر مدينة غات غنية بغزارة المياه وهي محاطة باشجار النخيل تكثر فيها الاثل ولم يلاحظ في العين الفقاعات التى تشاهد في العيون بمنطقة وادي الشاطىء الانها بوضوح ذات مساحة واسعة مثل عين تراغن لقد كانت المياه صافية ومذاقها عذب وموجودة بوفرة . تستخدم هذه المياه لرى مناطق واسعة ويتم ذلك عن طريق حفر قنوات في الارض حيث تزود المدينة بالماء من هذا المكان وفرة الماء العذب يعتبر نعمة كبيرة في كل بقعة من العالم وخاصة في المناطق الحارة وقد ادرك سكان هذه المنطقة هذاالامر حيث تجدهم هنا وفي المناطق الاخرى سعداء جدا لوفرة الماء وعذوبته كما توجد بعض الاماكن الصغيرة في هذه المنطقة جميلة جدا حيث تتنوع المناظر التى توجد فيها هنا وهناك حقول العشب وثمار البطيخ تنبت في حواشي سواقي الماء ، ويوجد ايضا اشجار النخيل الممتلئة بالتمر الناضج ، وايضا دوالي العنب المتسلقة في الاشجار وتوجد منصات من سعف النخيل تعلو الارض بمقدار خمسة اقدام تستخدم كأماكن للنوم وحماية الناس من خطر العقارب التى توجد بكثرة . اما عن مظهر المنازل فكانت منظفة ونظيفة وكان المسجد من اجمل مساجد فزان ، لقد كان كل شئ منظم وبسيط . لقد بنيت المدينة اسفل تل منخفض اما المدينة القديمة فقد بنيت فوق قمته ولكنها كما اخبرونا قد تهدمت وهجرها معظم السكان . في الحقيقة ليس هناك الان أي تل منها يحافظ على ارتفاعه الاصلي ، وقد هبط منذ فترة ليست بعيدة جزء كبير من جبل مجاور وقد سمع صوت سقوط حجارته من مكان بعيد . اما عن تاريخ تهدم المدينة فلم نستطع ان نعرف عنه شيئا فالمدينة محاطة بسور يبدو في حالة جيدة وهو مبنى من الرمل والطين الابيض ، ويبدو جميلا ورائعا توجد بوابة واحدة فقط في الشرق وكانت في

الماضي عديد من البوابات الا انها الآن قد سدت واغلقت المنازل مبنية من نفس مادة السور ويبدو شكلها الخارجي وتنظيمها من الداخل مثل تلك المنازل التى في مرزق والمدن الاسلامية الاخرى . تقدر حجم مساحة المدينة مثل حجم مدينة اوباري وربما يكون عدد سكانها حوالى 1000 نسمة . وتوجد المقبرة خارج المدينة وهي مقسمة الى قسمين قسم للكبار واخر للاطفال وهذا التقسيم لم نلاحظه في فزان

اما عن لغة الطوارق فهي خشنة حيث تصدر الاصوات من الحنجرة الا انها معبرة وقوية وبنقص الكتب وقلة الاهتمام المبذول في تنمية اللغة ادى الى جعلها في وضعية ناقصة وذات مستوى متدن .وبالنسبة لكتابتهم فهم قد يكتبون من اليمين الى اليسار او بالعكس او افقيه .ان وقار الطارقي ورزانته يعتبر عائقا كبير امام الفن والطرب ، فالرجال نادراً ما ينشدون الاغاني ويعتبرون الغناء لايناسب سوى النساء فقط . وصفت لنا الاغاني بانها جميلة ورائعة ، الا أننا لم نسمع أيا من الرجال يقول الشعر او يردده . الناس هنا لهم احساس مرهف وهم باستطاعتهم ان يخبروك عن مشاهدتهم بكل دقة اكثر من أي تاجر مغربي التقيت به ، فهم اناس متميزون في كل المواقف التى يظهرون ويشاركون فيها .

الرحالة الانجليزي جيمس ريشاردسون (ϖ يعقوب 1806 ـ 1851) عرف برحلتين الاولي قام بها في العام 1845 انطلاق من طرابلس وشملت جنزور والزاوية الغربية ويفرن والرجبان وغدامس ومنها الى غات ومرزق ثم العودة الى طرابلس ومكث في غات مايزيد عن الشهرين ونشر تقاريره عمها في كتاب ترجمه د/ الهادي ابو لقمه بعنوان تجوال في الصحراء ومنه تاخذ النصوص التالية . وتجدر الاشارة الى ان ريشاردسون بعد اربع سنوات من انجاز هذه الرحلة كلف برئاسة رحلة اكبر ضمت الرحالة الالماني الشهير هينريش بارت وأفرفيغ ثم فوغل وتوفي ريشاردسون في 4 مارس 1851 في نغورتو قبل نهاية الرحلة

لقد وصفاً ريشارسون غات بان بساتينهاذات خصوبة عالية وخلافاً لغات لا يقام بالبركت اى سوق مما يجعلها خارج نطاق حركة الغرباء الوافدين على غات ، كما أن جل أهلها البالغ عددهم قرابة ستمائة نسمة يعودون فى أصلهم الى سكان منطقة الساحل فى الشمال

حظيـت بزيارة ممتعة مـن المدعو صلاح الابن الأكبر للحاج منصور الغدامسـى الأصل ، الذى أكد أن جل مرشدى القوافل بما فيهم

كاندارا يبالغون فى مخاطر الطريق ليحققوا لانفسهم عائداً أكبر ،
أمر كل مساء بمدرسة ليلية فى أحد الشوارع حيث يكتظ بعدد من الاطفال فى حجرة صغيرة وهم يتلون فى وقت واحد درسهم القرآنى، وربما بشكل لا يختلف كثيراً عن بعض رياض الاطفال عندنا . ان تكرار تلاوة سورة من القران الكريم أو أى درس اخر طريقه شائعة منذ مدة طويلة فى منطقة الشمال الافريقى وفى بلاد الشرق على ما أظن ، ومع أنها طريقة جديدة فى انجلترا وأوروبا الا أنها قديمة فى كل من اسيا وأفريقيا غير أن الطريف فى الامر اننى لم أشاهد مدرسة ليلية من قبل فى منطقة المغرب العربى ، مما يجعلنى أنظر اليها على أنها عينه من النظام التعليمى المميز ، وأنها هى التى اعطت الفرصة لكل ابناء الواحة من الذكور فى تعلم القراءة والكتابة ، ذلك ان مفخرة أهل غدامس هى أن كل ابنائهم يقرأون ويكتبون ، وان جميع المواطنين بإمكانهم قراءة وكتابة القران ، وهى حقيقة تبين ان ما ندعوهم بالبرابرة يملكون ما يعكس احساساً مؤلماً عند أبناء انجلترا الشرفاء .
فنحـن كانجليـز يمكننا أن نفخـر بما نتمتـع به من حريـات ، وبوثيقـة الماجنا كارتـا ، وباستقلالنا كأفراد وبتجارتنا وثرائنا وبتلك المناطق الواسعة التى نحكمها ، الا اننا لا نستطيع ان نفاخر بما أنجزه بدو الصحراء ، اذ يستحيل علينا بأن كل أبنائنا الذكور يملكون القدرة على قراءة الكتاب المقدس . فهذه الحقيقة المؤلمة والمخزية فى نفس الوقت ، والتى يستحيل انكارها ، تفرض علينا الشك فى معتقداتنا الدينية ، وفى نوايانا للحب والمحافظة على الحرية ، الا فى ظل مناقشة ان تكون حريتنا قد بنيت على رغبتنا الصادقة فى التطلع الى التعليم ، وأننا رجال احرار لأن نصف شعبنا لا يستطيع كتابة اسمائهم .
أكد أحد وزراء الحكومة فى اجتماع للبرلمان ، وكان جسوراً على العادة ، بأننا كانجليز أقل شعوب أوروبا حظاً فى التعليم ، واننا أكثر من ذلك نأتى بعد شعب نيوزيلندة المتوحش ، لم يثر هذا الاعلان الجرىء ، والصادر عن أحد الوزراء ، أى رد فعل يثأر للكرامة ولا أى شعور بالغضب والأسـى ولا حتى همسة امتعاض من السادة اللوردات الذين وجهت اليهـم هـذه الاهانة ، التى لا بد أن تلحق السادة أعضاء البرلمان وكل فئات الشعب أيضاً .
إن تكرار الاعلان عن وصمة العار هذه ، التى تلحق شخصيتنا القومية لم يلحقها أى أثر من مظاهر الشعور بالعار على مستوى إدراكنا القومى فما هو السبب يا ترى ، وهل يكمن فى ذلك

التعصب الاعمى الذى لا شفاء منه عند الشعب الانجليزى ، والذى لا يتوانى من أجله للتضحية بشرفنا القومى وسعادة الجميع وبحريتنا وضميرنا ايضاً . إن الذى لا شك فيه هو أن أى مقترحات تتقدم بها الحكومة فى هذا الشأن لن يقبلها أحد لاختلاف فئاتهم الاجتماعية . إن الاختلاف الواضح بين طبقات الشعب لن يأتى بتعليم يستحق هذه التسمية ، إلا إذا بلغ من وجهات نظرهم ومبادئهم الخاصة وفى هذا دوام انتشار العار والسلوك المخزى مما نعانيه من جهل بين ظهرانينا .

ولعـل ما يستحق التسجيل والملاحظة هو اتخاذ هـؤلاء الصغار فـي مثل هذه المـدارس ، الرمل وسيلتهم الاولى لتعلم القراءة ، فمع انتشار الرمال داخل وخارج الواحات ، وما ينجم عن ذلك من فقر وعجز الناس بالتالى عن شراء الورق وتوابعه ، فإنهم يستعيضون عنه باستعمال هذه المادة المتوفرة من حولهم ، والتى يظهر استعمالها الدائم فـى عملياتهـم الحسابيـة ، التى يشاهدها المرء بوضوح بين طبقة التجار حيث يقوم بإصبع السبابة أو برأس الرمح ، بدل القلم ، ببيان نتائج حساباتهم البسيطة على الرمل أمامهم ، أما اذا كان الامر اكثر جدية فإن المعنى يضع علامات تحدد نتائج ما توصل اليه برسم علامات على شكل مربعات أو دوائر كإشارة الى نتيجة ما، علماً بانهم يحرصون على إزالة أثار ما خلفوه من أثار على الرمل وبالذات فى طرقات المدينة .

تعجبت من الطريقة الغريبة التي يتبعها الطوارق في تولية أحد سلاطينهم أو الشيوخ الذين ينتمون إلى الأسرة المالكة ذلك ان ابن اخت السلطان هو الذي يتولى العرش من بعده من بين بقية الطوارق ، وهى العادة التي سمعت انها الطريقة السائدة أيضا بين السكان المغاربة القاطنين على ضفتي نهر السنغال ، ولو ان ابن بطوطة يؤكد ان مثل هذه العادة هى ما يحدث بين السكان البربر فى منطقة توالاتن فى غرب الصحراء حيث يقول : ((يسمى الناس أنفسهم على أسماء أخوة أمهاتهم ، وان أبناء الأب لا يرثون شيئا ، لان الورثة الحقيقيين هم الأبناء الذكور لاخت الوالد)) . ثم يمضى ليؤكد بانه لم يعرف شيئا من هذا القبيل الا عند وثنيي مالابار فى الهند . وهكذا يبدو أن أبناء الصحراء الأجلاف لا يملكون ثقة كافية فى وراثة الابن لابيه لاعتقادهم بان النسوة لا يحب ان يوضعوا فى مجابهة امتحان عسير يتعلق بالمحافظة على نقاء جنس لا تشوب دماءه شائبة ، إذ كثيراً ما يتساءلون كيف يحق لنا أن نعرف إن كان ابن السلطان ابنه فعلاً ، الا يجوز أن يكون ابناً لاحد العبيد ، ومن يحق

له أن يؤكد ذلك ، أما فى حالة ولادته من اخت السلطان فإننا عندئذ نعرف يقيناً لانه من نفس فصيلة دمه .
الى جانب ما سبق هناك حالة اخرى شاذة عن القياس فى السلم الاجتماعـي فى مدينة غات ، فالمراة وحدها هى التى يحق لها الارث خلافا للرجل ذلك ان قانون حق الارث لباكورة الابناء حيث يقف شامخا الى جانب المراة ، ولهذا فان اغلب منازل المدينة ، رغم ان جل سكانها من المغاربة ، هى فى الواقع ملك للنساء سواء عن طريق الارث او منحت لهن عند زواجهن من قبل الاصدقاء او الاقارب اذ تقف هاتان الحاتان الخارجتان عن القياس الى جانب المراة خلافا لما هو موجود فى المنطقة الاسلامية الاخرى .
اننى على يقين الآن من اننى لن أجازف وأخبر الطوارق بأن من يتولى شؤون بلادنا هى امراة حتى لا أثير غضبهم ، انها حقيقة غربية يمكننى ان اضيف اليها بان اى ابن قلما ذهب أو يسافر مع ابيه لانه مربوط الى ركبة امه فى الغالب ، أو يسير بجانبها يفقد إعجابه بابيه ويركز كل حبه لامه بدلا من ابيه ، فعملية التغريب بين الابن ووالده ان صح التعبير يزداد اثرها بما جرت عليه العادة بان يمنع من الارث الذى لا يناله منه شىء الا عن طريق امه .
ذهبت لزيارة الشيخ حطيطة وخلافاً للعادة لم يطلب شيئاً ولو انه الح على ضرورة اختيار الجهة ، التى انوى الذهاب اليها ، فاعطيته وزميلا له بعض الدواء ولدهشتى سمعت الاخير يحمد الله الذى خلق من الكفار اطباء لعلاج المسلمين .
قام ليلة البارحة عبيد الحاج ابراهيم البالغ عددهم قرابة الخمسين بالرقص والغناء أملا فى نسيان آلامهم وحالة الرق التى هم فيها ، فقامت شابة منهن بتقليد شخصيات غربية بعد ان تقمصت البورى او الشيطان اذ عندما ينفعل الزنجى بحدة يقال انه امتلك بمعنى ان البورى او الشيطان قد حل به ، وهو تعبير لا يختلف كثيرا عن اصطلاح الشياطين الزرق ، ففى مثل هذه الامسيات يتوهم العبيد انهم فى الغابة داخل وطنهم فينطلقون للغناء والرقص على تلك الانغام البدائية التى تنفثها معداتهم الموسيقية ، ويشعرون بانهم احرار كغيرهم من باقى الاحياء .
خرجت هذا الصباح لاتمتع بمنظر عام للواحة برفقة عم صديقى جربوع الذى أمسك بيدى وساعدنى على صعود الصخرة القريبة التى يتيح الوقوف فوقها رؤية كامل الواحة والمناطق القريبة منها ، فمن أعلى هذه الصخرة الواقعة شمال المدينة يحظى المرء بمنظر خلاب للمدينة والواحة واشجار النخيل القريبة وكل

أطراف الصحراء فى منطقة وادى غات ، فالى الجنوب ظهرت اشجار نخيل البركت ، اما الى الشرق فتقوم سلسلة جبال سوداء تعكس ظلالها على تلك الكثبان الرملية المتفرقة التى تبدو قواعدها وكانها اكوام من الفضة .

يزيد ارتفاع السلسلة الجبلية عن متوسط ارتفاع باقى الجبال الصحراوية ، فهذه الجبال كما يقول الطوارق بنتها الجنون لتحميم وممتلكاتهم من غزو العثمانين وياجوج وماجوج ، كما تعمل ايضا كسد او حواجز تحرسهم من اتجاه الشرق حيث تبدو وكانها ملتصقة ببعضها اذ لا توجد بها أية فواصل او مجارى او اودية.

تحيط مجموعة من الكثبان الرملية بضواحى المدينة يبدو بينها قصر الحاكم وكانه خط دفاعى تعلوه بروج بها فتحات لاطلاق النار ، ففى هذا القصر يقطن الملك والوالى الحاج احمد امر الجميع .

تتباين المظاهر التضاريسية القريبة ما بين سهل تنمو به اشجار النخيل ، ومناطق الرمال واخرى جبلية مما يعطى مناظر متنافرة ولكنها جذابة على الرغم من كآبة منظر سلسلة جبال الويرات القريبة .

تعتبر غات مدينة صغيرة ، كما أن حدائقها محددة المساحة وتبدو الواحة بكاملها كدائرة لا يتجاوز محيطها أربعة أميال ، أما أشجار النخيل فتبدو مختلفة جداً اذ لا يعطى نصف ثماراً ، كما ان ما يجنى من الباقى متوسط الجودة ، وهو ما يثبت بالدليل القاطع أن شجرة النخيل لا تعتمد على نوعية المياه لان الامر فى هذه الحالة سيجعل من نخيل غات وثمارها بالتالى أجود من اى مكان اخر .لان بعض واحات فزان حيث لا يستساغ للمياه طعما بل وقد لا تختلف مطلقاً عن المياه المالحة ، ومع ذلك تبدو أشجار نخيلها وهى فى أبهى صورها ، ولا يضاهى ثمارها اى بلح اخر .

وتتميز منازل غات بمنظرها الخراب الايل للسقوط سواء من الخارج أو من داخلها ، وتفتقر كليه الى الطلاء الابيض اللامع كبيوت بلاد المغرب ، ومع ان المدينة محاطة بمورد غزير من الحجارة اضافة الى ان الجير يمكن تحضيره بسهولة ، الا ان المنازل كلها مبنية من الوحل والاجر المجفف فى الشمس ، ولذا فان هطول امطار غزيرة عدة ايام كفيلة بازالة عدد منها ، اما خشب البناء فانه بالطبع لا يزيد على المتوفر من جذوع النخيل .

أما فيما يخص المياه فلن يخفى على المرء وجود بعض الحفر الكبيرة المستعمله كابار الى جانب العديد من ينابيع المياه الدافئة ولكن دون أن تصل درجة حرارتها الى تلك التى تقرب

من الغليان فى واحة غدامس ، إضافة الى وجود خزان كبير للمياه تعلو جوانبه أشجار النخيل وبعض الشجيرات التى تغطى جميع الحوافى باستثناء تلك الرقعة التى يستعملها الناس لجر المياه ، علما بأن هذه المنطقة تقع داخل سور يفصلها عما حولها حيث يبدو أن المياه الجوفية تتسرب وتندفع تلقائيا حتى مستوى مياهه التى توفر ماء من الدرجة الاولى فى جودته إذ لم يلاحظ أحد أنها تسببت أمراض الحمى فى أى وقت .

تقوم طريقة الرى على نفس المبادىء التى يمارسها أهل غدامس ولكن باستخدام العبيد الذين يوكل اليهم رفع مياه الابار خلافاً لواحات فزان حيث تقوم الحيوانات بسحب المياه ، التى تندفع تلقائياً فى منطقة غدامس .

تحتل أراضى المقابر التى تقوم عادة على أطراف الواحات الصحراوية ، مساحة أكبر من تلك التييستغلها الاحياء على اعتبار ان كل قبر جديد لا بد له من توفير مكان لم يسبق استعماله من قبل لان اعادة استعمالها تأخذ وقتاً طويلاً من قبل معظم المسلمين .

لم أشاهد سوى قبر مطلى باللون الابيض وبالسؤال تبين أن شهرة صاحبه كرجل صالح تفوق شهرة غيره ، ونال بذلك ليصبح المعلم الوحيد فى المقبرة ، خلافاً للقبور الاخرى التى لا تعدو أكواماً من الحجارة صنعت دون تناسق على شكل قبر تميز منطقة الرأس فيه موضع قطعة حجر أكبر من غيرها .

لا يختلف الطابع المعماري لمنازل غات عما هو موجود فى غدامس باستثناء اللمسات النهائية لمبانى غدامس ، التى تعرف عناية أكبر لادخال بعض الزخارف عليها ، هذا فى الوقت الذى تغلف معظم جدران المنازل بطبقة من الوحل الذى يستعمل أيضاً كطبقة إضافية لجميع الأسقف ولو أن طريقة تنفيذها لا تخلو من مظاهر سوء الصنعة حتى أنها تبدو وكانهـا أبعد ما تكـون عـن الدقة التى لا يمكن غض النظر عنها أيضاً فى تلك الدواليب الحائطية التى تحفر فى الجدران الداخلية فى محاولة لاعطائها شكلاً مربعاً أو ثلاثى الابعاد ، وهو الشكل الغالب أيضاً على ما قد يوجد من نوافذ .

يشكل خشب النخيل وأغصانه المادة المتداولة فى أغلب الاستعمالات التى تتطلب خشباً عادياً ، ومع أن أبواب المنازل تتخذ هى الاخرى لشكل المربع ، الا أن بعضها لا يمكن عبورها دون الانحاء الواضح وبالذات مع الطوارق الذين يندر أن يتحركوا دون رماحهم الطويلة ، أما بخصوص الاقفال المستعملة داخل الواحات ، أو حتى فى منطقة الساحل المغربى ، فإن المرء لا

يستطيع سوى إبداء إعجابه بطريقة صنعها هى والمفاتيح المستعملة معها اذ لن يكون بإمكان الانسان العادى سهولة التعامل معها .تفرش أرضية المنازل بما فى ذلك غرف النوم ، بطبقة سميكة نوعاً ما من الرمل يتوقف مدى نعومتها ونظافتها على مدى قدرة واستعداد صاحب المنزل نفسه .
كما سبق الذكر ان مدينة غات ضمت سكان ثلاثة قرى وكانت قبلها وهي انغي وانتست وتن الكوم وتتشكل هذه القبائل اياجنن وكيل خبس وكيل تلق والامكمظن الا انه كانت كسوق ومحطة رئيسية لطرق القوافل نحو اغادس وكانو وكوكه و ضمت عناصر اخرى من الطوارق والانصار من اهل توات والغدامسيين والعتارة وقدر عدد بيوتهم بحوالى 560 بيتاً ويقدر كراوزه عدد السكان بحوالى 3360 على اساس متوسط عدد افراد البيت الواحد 6 افراد ويزداد عدد السكان اثناء انعقاد السوق الذي يستمر طويلا في غات والذي يضم حوالى الف شخص من خارج البلدة ويذكر ريشاردسون انه عند وصوله غات في ديسمبر 1845 لم يجد مكاناً مناسباً لبقائه في المدينة بسبب كثرة التجار والغرباء في المدينة. ويبدو ان غات قد حافظت على نشاطها التجاري حتى مطلع القرن العشرين ولم يتراجع عدد سكانها كثيرا مثلما حدث في مرزق بعد ما تراجعت حركة التجارة من طريق طرابلس مروراً بمرزق ، عند وصوله الى غات قام ابن حاكم غات الشاب بمرافقته إلى بيت يقيم به بعض الرقيق والده حيث ان المدينة تغص بالتجار والغرباء ولم يعد بالامكان توفير مكان اكثر ملاءمة مما اضطر تنزيل الحمولة خارج اسوار المدينة وذلك لعدة اسباب .
1. قلة اتساع شوارعها وصغر مساحاتها .
2. عدم السماح بدخول الابل وحيوانات النقل الاخرى عبر ابواب المدينة فان جميع انواع البضائع يتم نقلها الى داخل المدينة عن طريق عبيد بوابات المدينة .
خرج ريشاردسون يتفقد حاجياته حيث وجد حمولته كاملة دون نقص ولم يلحقها سوء مما اثار دهشته للامان الذي كانت تتحلى به مدينة غات وسكانها وما ان انتشرت الاخبار بان جميع الغرباء قد تركوا مدينة غات خلال عدة ايام اذ ستعود قافلة باتجاة الجنوب واخرى الى الشمال كما تغادر قافلة باتجاة الشرق في حين تتجه الاخرى جنوب الغرب ورغم ان علاقات غات التجارية وازدهارها جعلها مطمعاً لكثير من البدو مما دفع سكانها الى تفادي المنازعات الا ان الجماعات المتنازعة او الطامعة لم تدعها تعيش في عزلة تتمتع بكل ماتدره عليها الحركة التجارية من

ثروة وتنعم بالاستقرار والهدوء والامان وكانت ميدان صراع بين البدو من طوارق الازقر والتبو .
فقوافل السودان بما فيها الوافدة من بعض المدن الكبيرة وبالذات من كانو ومن اقليم التبو وتوات وفزان ومنطقة سوف وغدامس وطرابلس وتونس بل ومن بقية مراكز الساحل الشمالي ، جاءت جميعها لزيارة سوق غات خلال موسم الشتاء هذا ، حيث قدر عدد مختلف التجار اضافة الى اصحاب الابل ومرشدي القوافل بما يقرب من خمسائة رجل في حين بلغ عدد العبيد الذين جيء بهم من السودان قرابة الف ، اما الابل التى استخدمت فبلغ عددها الفا وخمسين جملا في الوقت الذي توالى فيه وصول قوافل التموين من فزان . كما تتشكل البضائع الاساسية لهذه القوافل المتعددة والمتنوعة من العبيد وانياب الفيل ونبات السنا حيث قدرت قيمتها الاجمالية بما يساوي ستين الف دولار ، وهو مبلغ سيتضاعف بوصول هذه السلع الى الاسواق الاوربية يلي هذه السلع في الاهمية ريش النعام وكميات هائلة من الجلود التى تاتي بعدها سلع متنوعة اقل اهمية ولكنها ذات طابع سوداني كالملاعق والصحون الخشبية وما اليها من مستلزمات الطبخ والاحذية والامشاط الخشبية وأغلفة الوسائد الجلدية والاكياس والحقائب وقرب الماء الى اخر القائمة اضافة الى بعض الاسلحة كالرماح والخناجر والهروات والسيوف العريضة والدروع الجلدية وان بعض الاسلحة مصنوعة من المعادن كما ان شفرات السيوف مصنوعة في اوروبا او امريكا ، اما الاسلحة المستعملة من قبل طوارق وغات وتوات فتكاد مصنوعة بالكامل في منطقة اهير .
تتكون مواد التموين القادمة من السودان او اهير اساسا من السمن والقصب والذرة والقوفولي الذي يعرف بالذرة الغاتية في بعض الاحيان كما ترد من اهير بعض كميات من الجبن الجاف الذي يتم دقه ان لم يكن طحنه قبل تناوله اضافة الى بعض شرائح اللحم البقري المجفف بدون ملح والى بعض الفلفل وقليل مما يعرف بلوز السودان ، وكميات من البخور وبعض انواع اللوز يمضغ كالطباق. اما اخر انواع البضائع فيتمثل في تلك الكميات الوفيرة من قماش القطن التى تكفي كامل نصف سكان الصحراء اذ قد تصل منها حموله قوافل كاملة حيث يحول جزء هام منها عبر طريق ملتو ، الى تمبكتو ومما يلاحظ ان اللون الازرق الغامق هو اللون الغالب على هذه الاقمشة يليه اللون الازرق الباهت رغم لمعانه ، مع الاشارة الى ان الصبغة المستعملة لا تجهز بطريق مثلى وتترك اللون رديئا في كثير من

الاحيان ويخلف اثارا على الجسم ، علما بان جميع الطوارق يعشقون الالوان الغامقة ، اما الحيوانات الحية التى تجلب من السودان فلا تزيد عن بعض الاغنام وببغاوات اقليم اهير .
اما السلع المستوردة من اوربا فهي معروفة جيدا وتنحصر اساسا في الحرير والملابس الرخيصة ذات الالوان الزاهية التى يغلب عليها اللون الاحمر والاصفر والاخضر الباهت ، ويجلب الحرير اما في حالته الاولية او مطرزاً كما تستورد كميات كبيرة من العقود والمرايا الصغيرة والاساور الخشبية الغامقة الالوان وشفرات السيوف والورق وامواس الحلاقة والقفازات وعطر الورد وبعض البسط القطنية الخشبية مع التاكيد على ان جميع مثل هذه المواد التى تصل اسواق وسط افريقيا هي من النوع العادي جدا .
كما تجلب البرانس والجرود من عدة جهات للبيع في سوق غات وان كان معظمها ياتي من واحتي سوف وتوات حيث تجتهد النسوة في تجهيز اعداد كبيرة منها لشدة الطلب عليها لما توفره من دفء وبالذات خلال الشتاء علماً بان بعضها قد يجد طريقه الى السودان للاستعمال اثناء اشتداد الرطوبة في موسم الامطار . لم الاحظ اية اسلحة نارية تعرض للبيع ، كما ان كميات الذهب قليلة وغير ذات بال وتاتي كلها تقريباً من منطقة تمبكتو عن طريق توات ، اما النقود المتداولة فاسبانية في معظمها لان المتداول من النقود العثمانية لايزيد عن قطعتين معدنيتين تعرفان بالخروبة ، وتساوي اولهما بنسا انجليزياً ، اما الثانية فتبلغ ضعف القيمة السابقة ، هذا بالاضافة الى تداول بعض القروش التونسية بين تجار الشمال الافريقي ، وللعلم فان الوحدة الحالية المتداولة هي وحدة ربع الدولار الاسباني ، التى تكون خمسة منها القيمة الحقيقية للدولار الاسباني ، في حين يساوي مايعرف بالدولار العادي اربعة فقط من الوحدة النقدية المشار اليها مع الاشارة الى ان التجار السودانيين الذين تعودوا على التعامل بهذه الوحدات النقدية على ساحل القارة الغربي يرفضون التعامل بغير العملة الاسبانية ، كما انه لا اثر لاية عملة ذهبية متداولة كما هو الحال مع العملات النحاسية ، اضافة الى ان العملة العثمانية باستثناء ما ذكر غير قابل للتداول لشدة كره المواطنين لاصحاب هذه العملة .